السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 3 | علم الكلام والفلسفة الطبيعيّة

المقال 18 | حين فكّك المعتزلة كون أرسطو: لا أثير، لا أمكنة طبيعيّة

يُشاع أنّ مفكّري الحضارة الإسلاميّة، في معظمهم، اكتفوا بشرح كوسمولوجيا أرسطو والتعليق عليها، تاركين مهمّة تفكيكها الجذريّ لثورة علميّة أوروبيّة لاحقة. لكنّ هذه الصورة تتجاهل فصلًا كاملًا من النقد الجذريّ، كتبه المعتزلة قبل تلك الثورة بقرون.

نقطة في مقابل نقطة

على خلاف المدرسيّين اللاتينيّين الذين ظلّوا، في معظمهم، متمسّكين بالإطار الكونيّ الأرسطيّ، لم يُبقِ المعتزلة من تراث أرسطو الكونيّ إلّا النزر اليسير، حتّى يمكن النظر إلى كوسمولوجيتهم بوصفها ردًّا مباشرًا على كوسمولوجيا أرسطو، نقطة في مقابل نقطة:

- رفض المتكلّمون وجود «الأمكنة الطبيعيّة» التي يسعى إليها كلّ جسم بحسب طبعه.
- رفضوا العنصر الخامس (الأثير) الذي بنى عليه أرسطو تمييزه بين عالم ما تحت القمر وما فوقه.
- تخلّوا عن التصوّر الأرسطيّ التقليديّ للثقيل والخفيف، ليتصوّروا عالمًا تكون فيه الأجسام كلّها أشدّ أو أقلّ ثقلًا، لا خفيفة أو ثقيلة بطبعها.

نقد سطرًا بسطر لكتاب أرسطو

أفرد أبو هاشم الجُبَّائي مصنَّفًا مستقلًّا — مفقودًا اليوم — في الردّ على كتاب «السماء» لأرسطو. ولم يصلنا منه سوى ثلاث شذرات محفوظة عند ابن متّوَيه والبيروني، لكنّها تكفي لترجيح أنّ أبا هاشم تصدّى لهذا الكتاب نقدًا سطرًا بسطر: من مسألة شكل الماء وعدم كرويّته، إلى الحركات الطبيعيّة، إلى العلاقة بين الديناميكا والكينماتيكا. بل ثمّة حجّة أخرى منسوبة إليه، وردت عند البيروني، تتعلّق بوحدانيّة الكون ذاته.

كيف وصل هذا النقد إلى أوروبا؟

لم تبقَ حجج المعتزلة حبيسة أوساطها الأصليّة، بل انتشرت وتغلغلت عبر طريق غير مباشر: فقد انتقلت إلى الفكر المناهض للأرسطيّة في العصر الوسيط وعصر النهضة الأوروبيَّين عبر الردود التي قدّمها الفلاسفة المشّاؤون أنفسهم — ولا سيّما ابن سينا و ابن رشد وموسى بن ميمون — الذين نقلوا حجج المعتزلة وهم يفنّدونها، فحملوها، رغمًا عنهم، إلى قرّاء لاتينيّين سيستخدمونها لاحقًا في نقد أرسطو من جديد.

لماذا يهمّ هذا التصحيح؟

لأنّ هذا الفصل يضع الفكر الإسلاميّ في موقعه الحقيقيّ: ليس شارحًا سلبيًّا لكوسمولوجيا أرسطو، بل طرفًا نقديًّا فاعلًا أسهم — عبر قنوات غير مباشرة، لكنّها موثّقة — في تغذية التشكيك الأوروبيّ في هذه الكوسمولوجيا نفسها قبل قرون من الثورة العلميّة. وهذا بالضبط ما تسعى الموسوعة التي تُعدّها دار الربّان للنشر إلى توثيقه: أثر الفكر العربيّ الإسلاميّ في مسار العلم الإنسانيّ عمومًا، لا في حدوده الجغرافيّة أو الزمنيّة وحدها.

المصدر: مقتبس ومُعَدّ عن فصل "علم الكلام والفلسفة الطبيعيّة"، بقلم مروان راشد، ضمن المجلّد الثالث من موسوعة "تاريخ العلم"، الصادر عن معهد الموسوعة الإيطاليّة (تريكاني) 2002، بإشراف: رشدي راشد. وهو جزء من الموسوعة التي تُعِدّ دار الربّان للنشر حاليًّا لترجمتها ونشرها بالعربيّة كاملة، ضمن سلسلة "السياق المادّيّ والفكريّ".